



هل يجل البهاء والصفاء



مكان القبح والضوضاء؟!

د. نبيل سليم علي^(*)

شاء الله لي منذ بضعة أعوام أن أسافر في مهمة علمية لدولة أوروبية، أقمت هناك عدة شهور، وسمحت لي الظروف خلال إقامتي بالتجوال في ربوع تلك الدولة، من عاصمتها الضخمة إلى بعض القرى الساحلية فيها على شاطئ البحر.. بهرتني الطبيعة الخلابة من ناحية ما بذله البشر هناك من جهد في الحفاظ عليها وإظهارها في أجمل صورة، والتعايش معها في نسق بديع أخذ من ناحية أخرى. يا إلهي ما كل هذا الجمال؟ أجنة من جنان الرحمن على الأرض؟ حتى الصخور الجبلية السماء تتشقق فتخرج منها الزروع والثمار اللبنة، وهذا النسق البديع في كل مكان، من أكثر الشوارع اتساعاً في العاصمة إلى أضيق الحارات في الريف.. النظافة، الجمال، الصفاء، الهدوء، النظام، الترتيب والذوق البديع، والتناسق في الأشكال والألوان.. الورود والأزهار في كل مكان – بالرغم من ذلك الجو البارد – حتى في شرفات المنازل تجد أصص الزرع وعلى الجدران تجد النباتات المتسلقة.

كل ذلك يبعث في النفس الارتياح ويشبع في الفؤاد البهجة والسرور.. نظرت في تلك الأمور بقلب المؤمن الخاشع.. لقد أمرنا الله – سبحانه جل وعلا – بأن نعمل الأرض وبالإحسان في كل شيء وإلى كل شيء، فلم تكون بلادنا أقل جمالاً وعظمة من بلادهم؟!

أخذت أتذكر آيات الذكر الحكيم التي تشير إلى أن المناظر البهيجة تحدث أثراً جميلاً في النفس، وأن لها لذة وأنها من نعم الله – سبحانه – وأنها من نعيم أهل الجنة، وأن الله قد اهتم بتزيين السماء والأرض، وأنه جعل للناس جمالاً حتى في الأنعام حيث تغدو وتروح، وأنه جعل للإنسان قرة أعين في الأزواج والبنين والبنات وزينة في الأموال والأولاد، قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [الأعراف: ٣٢]، ﴿ولقد جعلنا في

(*) أستاذ جامعي وكاتب مصري.

السماء بروجاً وزيناها للناظرين»، [الحجر: ١٦] ﴿فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون﴾ [السجدة/ ١٧]، ﴿وصوركم فأحسن صوركم ورزقكم من الطبييات﴾ [غافر/ ٦٤]، ﴿ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب وفيها ما تشتهيهِ الأنفس وتلذ الأعين وأنتم فيها خالدون﴾ [الزخرف/ ٧٠-٧١]، ﴿ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين﴾ [الملك/ ٥]، ﴿وجعلنا سراجاً وهاجاً، وأنزلنا من المعصرات ماءً ثجاجاً لنخرج به حباً ونباتاً وجنات ألفافاً﴾ [النبأ/ ١٣-١٦].

فالجمال إذاً من نعم الله الجليلة، وهو يحدث في النفس رد فعل جميل، بل إن العين لتلذ بمرأى بديع الأشياء كما يلذ للإنسان بشهي الطعام والشراب... وعلى النقيض من ذلك يبعث القبح في النفس الكآبة ويثير فيها مشاعر قلة الارتياح والنفور. وكما أن عناصر الجمال في التناسق والتوافق والترتيب والذوق والنظافة والألوان والظلال، فإن عناصر القبح هي الفوضى والشذوذ عن الذوق والقدارة والتناقض في الأشكال والألوان، وتباين العناصر المختلفة وقلة التنسيق والاتفاق بينها، وفي بعض الأحيان يمر المرء بإحدى الطرقات في بلادنا فيشعر وكأن القبح مقصود لذاته، فهناك القذارة والفوضى وألوان البيوت الكالحة والوجوه الشاحبة والافتقار للأشجار والزهور وغيرها، الأمر الذي يبعث في النفس الضجر ويشيع نبرات الأسى والحزن.

أما عن الأصوات المزعجة والضجيج فحدث ولا حرج، حتى أن الضجيج أصبح يخرج من أعماق البيوت ويغزو ردهات المستشفيات وعنابر المرضى وقاعات الدرس، فأين هذا كله من شرع الله الذي يريد للإنسان أن يحيا حياة طيبة في الدنيا والآخرة، وأن يزين الأرض ويجملها ولا يملؤها بالدمامة والقبح. وهل يدري الإنسان أنه يسيء إلى نفسه مرتين عندما يشيع التلوث في البيئة من حوله؟ المرة الأولى بالافتقار إلى المشاعر الجميلة والرقى الروحي وصفاء النفس، والمرة الثانية بالتعرض للمرض وما يؤدي إليه من أضرار مادية ونفسية وبدنية.

فعلى سبيل المثال يتسبب الضجيج في التهيج النفسي والضغط العصبي، ويؤثر بشكل سلبي على أجهزة الجسم المختلفة مثل الأذن والقلب والأوعية الدموية والغدد الصم وجهاز المناعة، كما أنه يؤثر في سلوك الإنسان فيجعله يميل إلى العدوان ويعاني من الأرق وضعف الانتباه والتركيز.

لقد أثبتت التجارب المعملية على فئران التجارب أن التعرض للضجيج الدائم يؤثر على النمو ويؤخر سن البلوغ ويحدث اختلالات في دورة الطمث ويؤثر على نمو الجنين داخل الرحم، بل يؤدي إلى اختلال وظائف الكبد والكلية. ومن ذلك يتضح أن الضجيج يؤثر على الصحة العامة والحالة النفسية والخصوبة والقدرة على الإنجاب. الأمر الذي يتنافى تماماً مع متطلبات صفات الإنسان المؤمن، ويضعفه فالمؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير، كما أن الله جميل يحب الجمال. فاللهم نسألك عيشة نقية هنية يحل فيها البهاء والصفاء والهدوء مكان القبح والتلوث والضوضاء.